فهرس المحتويات

الاثار في خدمة السياسة،..... ٦
الدكتور عدنان الحديدي

زراعة قصب السكر وصناعته عند العرب والمسلمين
الدكتور صالح الحمارنة.....١٢

الحفريات الاثرية في الاردن ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧
الدكتور معاوية ابراهيم
والسيدة حنان الكردي..... ٢٠

الحيوانات والنباتات المكتشفة داخل المنازل أو الأماكن الأخرى في الموقع الأثري. ذلك لأنهم يعتبرون دراسة الطقوس الدينية أهم من معرفة وسائل المعيشة عند القدماء (٣). وجلي أن هدفهم من ذلك هو مطابقة ما ورد من وصف للطقوس الدينية في المصادر المدونة مع ما يعثرون عليه في المعابد. إن التنقيبات الأثرية يجب أن تكون وسيلة لدراسة التاريخ القديم ومعرفة كل ما يمكن معرفته عن حياة السكان في العصور السالفة ومعيشتهم لا أن تسخر هذه التنقيبات وتحور نتائجها لاثبات صحة ما ورد في المصادر المدونة كالتوراة مثلا. إن أحدا لا يعترض على محاولات علماء التوراة معرفة الأماكن والمواقع المشار إليها في العهد القديم، ولكن أن تستعمل التوراة مرشدا لتفسير ما يكتشف من آثار لا يتفق مع علم أو منطق. إن الأمثلة على خطأ هذا المنهج التقليدي الذي ما فتئ يتبعه علماء التوراة كثيرة لا يتسع لها حيز هذه المقالة ولكننا نكتفي بالحديث عن بعض منها للبرهنة على ما ذكر.

نظرية الفراغ الحضاري في جنوب الأردن (أنظر الخارطة)

من أبرز علماء التوراة في عصرنا الحاضر الحاخام نيلسون جلوك (Nelson Glueck) المتوفي عام ١٩٧٠. وقد قام بنشاط أثري واسع حينما كان يعمل جاسوسا للمخابرات البريطانية في فلسطين وبقية البلدان العربية بعد الحرب العالمية الأولى (٤). وأهم إنجازاته الأثرية: إستكشاف آثار شرق الأردن ووادي عربة وصحراء النقب وشملت نحو ألف وخمسمائة موقع أثري سجلها على الخرائط كما أشرف على عدد من التنقيبات في تل الخليفة قرب مدينة العقبة وفي جبل التنور قرب مدينة الكرك. وشغل منصب رئيس كلية الاتحاد العبري ـ المعهد اليهودي للدراسات التوراتية. ومن أشهر مؤلفاته «مسح أثار شرقي الأردن» في أربعة أجزاء و «نهر الأردن» و«أنهار في الصحراء» و«ألهة ودولفينات: قصة الحضارة النبطية» وجميعها باللغة الانجليزية (٥).

إن من يقرأ كتاب جلوك «مسح آثار شرقي الأردن» يجد أن جميع تفسيره لتاريخ هذه المنطقة منذ حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م. مبني على معلومات وروايات من أسفار التوراة. ويبدأ هذا التاريخ على حد زعمه بآثار تدمير شامل لما يسمى بحضارة المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط على طول خط يمتد من جنوب نهر الزرقاء بوسط البلاد الى صحراء النقب وحدود مصر. ويعزو جلوك هذا التدمير الى فعل جيوش غازية قدمت من الشرق بزعامة الملك «كيدرليعومير» كما ورد في التوراة (سفر التكوين ١٤:٥ – ٧). ويحدد جلوك زمن المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط من ٢١٠٠ الى ١٨٥٠ ق.م. ويطابقه مع الزمن الذي عاش فيه إبراهيم عليه السلام وأتباعه. ثم يتابع القول ـ وهذا أخطر ما في نظريته ـ بأن المنطقة التي تقع جنوب نهر الزرقاء شهدت بنهاية المرحلة المشار اليها إنخفاضا كبيرا في المجتمعات المستقرة خلال ما يسمى بالمرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط من ١٨٥٠ الى ١٥٥٠ ق.م. وخلال المرحلتين الأولى والثانية من العصر البرونزي المتأخر ١٥٥٠ – ١٤٠٠ ق.م. و١٤٠٠ – ١٢٠٠ ق.م. (٦). وبتعبير آخر فان جلوك يدعى أن الأردن كان خاليا من السكان تقريبا مدة ستمائة عام الى أن جاءه الاسرائيليون بعد خروجهم من مصر متوجهين الى فلسطين أرض الميعاد. ولكنه لا يملك إلا الاعتراف بأن الممالك العربية ايدوم ومؤاب وعمون وغيرها والتي تملأ آثارها الأراضي التي يدعي خلوها من السكان كانت قد نشأت قبل مجيء الاسرائيليين ولكن بزمن قصير فقط في القرن الرابع عشر ق.م. على وجه التحديد. وهكذا نسق جلوك مكتشفاته بحيث جعل تاريخها يطابق رواية التوراة التاريخية والتي تشكل جزءا من تقاليد الديانة الاسرائيلية القديمة. ولا مفر من التساؤل بعد تقريره هذه النتيجة: أيهما كان الأول تاريخ هجوم «كيدر ليعومير» على الأردن الذي تشير إليه التوراة أم التاريخ الذي تشير إليه المكتشفات الأثرية عن نهاية المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط؟ هل إستطاع جلوك أن يجد برهانا واضحا يؤكد تاريخ هذين الحدثين يمكنه من القول بأنهما وقعا في آن واحد؟ أم أن ما فعله لا يتعدى التخمين والتصور بأن المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط إنتهت في فلسطين وشرقي الأردن في آن واحد ثم التخمين بأن هذه الفترة تتطابق مع زمن إبراهيم عليه السلام و «كيدر ليعومير» وأن الأخير إستطاع بحملة واحدة تدمير بلاد بأكملها تدميرا تاما. إن حزره يشمل كل ذلك رغم افتقاره الى معرفة وقوع اي من الأحداث المذكورة بصورة واضحة ومحددة. ان جلوك يعتمد بالطبع على روايات وأخبار وردت في اسفار التوراة لا على حقائق علمية موضوعية. ولكن الى اي مدى يمكننا الاعتماد على صحة روايات التوراة من الوجهة التاريخية؟ يقول الأثري الهولندي الشهير هانك فرانكن (Hank J. Franken) الأستاذ بجامعة لايدن بهذا الصدد «لا يختلف مفهوم الاسرائيليين الخاطئ للقضايا العربية وحقوق عرب فلسطين في عصرنا الحاضر عنه في الزمن القديم» (٧). والحقيقة أن الاكتشافات الأثرية الحديثة تبين أن شرقي

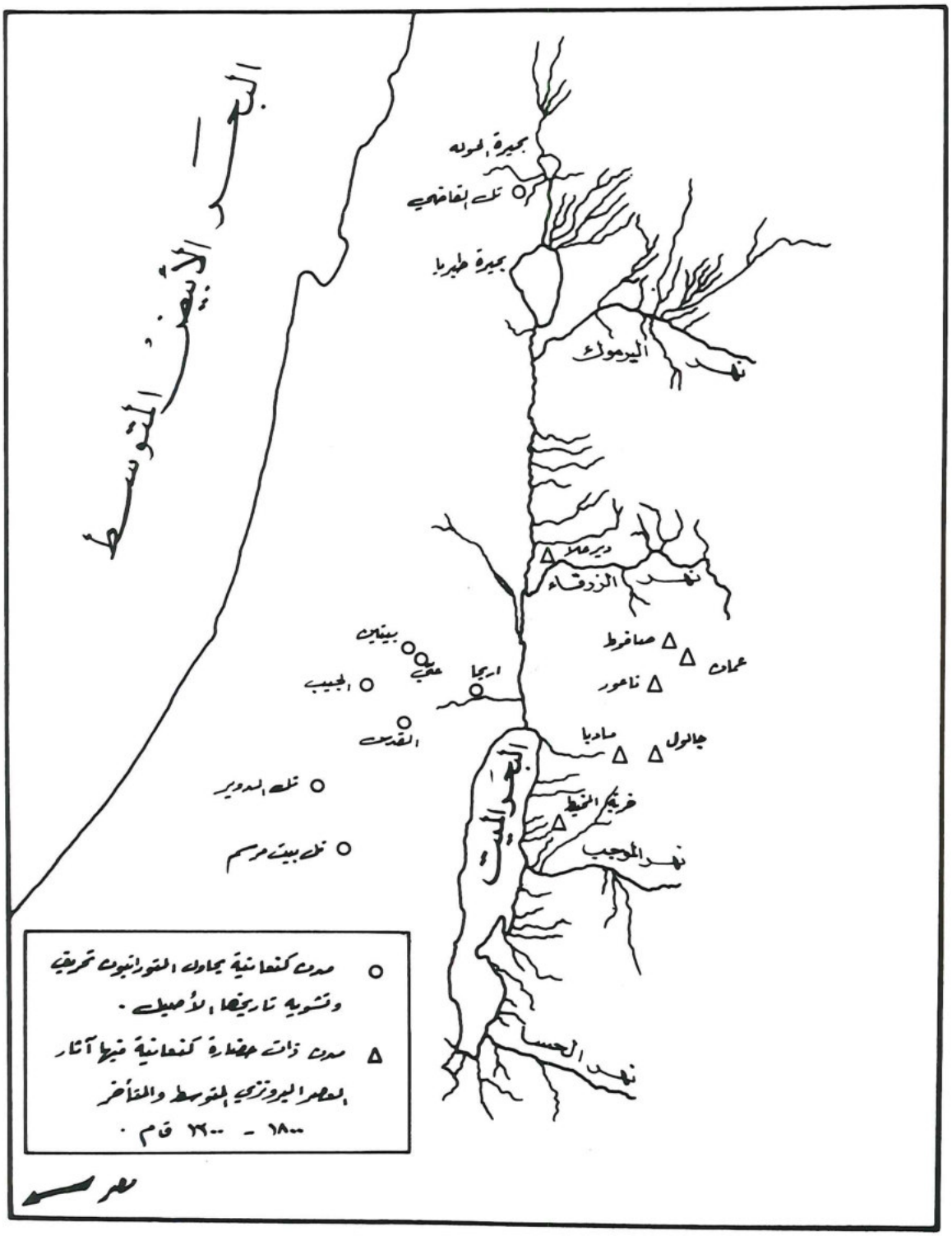
البحر الأبيض المتوسط
بحيرة الحولة
تل القاضي
بحيرة طبريا
اليرموك
نهر
دير علا
نهر الزرقاء
صافوط
عمان
ناعور
بيتين
عقبي
ارجا
الجيب
القدس
جالول
مادبا
تل المدوير
خربة النحيط
نهر الموجب
تل بيت مرسم
نهر الحسا
○ مدن كنعانية يحاول التوراتيون تحريفها وتشويه تاريخها الأصيل.
△ مدن ذات حضارة كنعانية ضمن آثار العصر البرونزي المتوسط والمتأخر ١٨٠٠ - ١٢٠٠ ق م.

شكل رقم (١)

الأردن لم يشهد فراغا حضاريا في الفترة الواقعة بين نهاية المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط والمرحلة الثانية من العصر البرونزي المتأخر. فقد عثر المنقبون على آثار وخزف في عدة مواقع جنوب نهر الزرقاء يعود تاريخها الى المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط والمرحلتين الأولى والثانية من العصر البرونزي المتأخر في مأدبا وخربة المخيط ووادي أبو النمل وجالول وناعور وعمان ودير علا وغيرها. واعترف جلوك نفسه بذلك قبيل وفاته في الطبعة الحديثة من كتابه « "The Other Side of the Jordan" (٨).

البداوة عدو للحضارة:

وثمة نظرية أخرى مرتبطة بالنظرية السابقة توصل إليها العالم التوراتي جلوك على أثر دراسته السطحية لآثار شرقي الأردن في الثلاثينات من هذا القرن وهي أن حياة البداوة كانت تشكل دائما خطرا مستمرا يتهدد المجتمعات الحضرية بالتخريب والدمار. ولما كانت الصهيونية العالمية تقوم بدراسة إمكانيات البلاد الزراعية آنذاك وتسعى الى إقامة مستعمرات لتوطين المهاجرين اليهود فان استغرابنا لهذه النتيجة سرعان ما يتلاشى ونفهم بسهولة أن تفسيره للآثار مرتبط بمقتضيات الأهداف القومية اليهودية. وما فعله جلوك وأتباعه هو أنهم فسروا الشواهد الأثرية القديمة حسب النوايا والخطط التي كان اليهود يسعون الى تحقيقها في المنطقة، متجاهلين قواعد البحث العلمي الدقيق في دراسة العصور الأثرية. ان كل عصر من هذه العصور له مسائله ومشكلاته الخاصة وليس بمقدور الأثريين إعطاء صورة واضحة عنها إذا لم تتوافر لديهم شواهد أثرية حقيقية وواقعية تكشف عنها التنقيبات العلميّة. ويكفي أنّ نتذكر الصعوبات التي تعترض من يحاول تتبع إستقرار القبائل الاسرائيلية في فلسطين ومراحل إنتقالها من حياة البداوة الى الحياة الحضرية والزمن الطويل الذي يستغرقه مثل هذا التحول لندرك أن الدراسة السطحية وحدها لا تمكن العلماء من حل هذه المسائل التاريخية والحضارية المعقدة. إن أحدا لا ينكر أن العالم التوراتي جلوك إستطاع تسليط الأضواء على كثير من المعلومات الأثرية المفيدة، ولكن تفسيره لهذه المعلومات يفتقر الى الدقة التاريخية والتسلسل الزمني مما يجعلها عديمة النفع بالنسبة للمؤرخين. وهذا أمر طبيعي طالما أنه كان يفسر الشواهد الأثرية من خلال صفحات التوراة. ولو أن أحدا إعتمد على المصادر المصرية فقط لكتابة تاريخ فلسطين القديم لوجد أن المعلومات عن بني إسرائيل ومملكتهم لا تشغل سوى حيز تافه في السجل التاريخي لهذه البلاد إذا ما قيس بالحيز الكبير الذي يشغله تاريخ الكنعانيين والفلسطينيين. (٩) ومن المؤسف أن نجد بين المفكرين والعلماء الأوروبيين من يقبل ويؤيد هذه المفاهيم ويعتبرها قواعد أساسية لدراسة آثار العالم العربي.

البحث عن مسرح لبطولات بني اسرائيل:(أنظر الخارطة)

إن أساس العلة في إقدام التوراتيين على تحريف التاريخ هو أن الدراسات الأثرية التي تعالج المراحل الحضارية السابقة للعهد المسيحي ترتكز على الايمان بأسطورة إبتدعها كتبة التوراة عن تحركات القبائل الاسرائيلية عبر البلدان المعادية لهم وما يتخلل ذلك من حكايات عن حروبهم مع سكانها. وبما أن التوراة تصف الأحداث التي مرت ببني إسرائيل وإنتصاراتهم والأماكن التي إحتلوها على أنها معجزات من صنع اله إسرائيل «يهوى»، فهي في نظر التوراتيين حقائق رغم إستحالة إثبات صحتها علميا وتاريخيا. إن سبب وقوع الأثريين التوراتيين ضحية هذا المنهج المغلوط هو رفضهم تحليل الشواهد الأثرية ودراستها خارج الاطار الديني أو العقائدي الذي يحاولون به تفسير الأحداث التاريخية والتطورات الحضارية. ونسوق هنا مثالا آخر على ضلال هذا المنهج. تتحدث التوارة فيما تتحدث وبوجه خاص سفر يشوع عن حروب وفتوحات وبطولات أحرزها الاسرائيليون أثناء عبورهم الى أرض الميعاد. لذا كان لا بد لعلماء التوراة من إيجاد فترة أثرية تتناسب شواهدها مع الروايات الدينية. فوقع إختيارهم على المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتأخر (١٤٠٠ – ١٢٠٠ق.م.). فالآثار والنقوش والمخطوطات والرسومات تدلنا على أن الشرق الأدني شهد آنذاك إضطرابا عظيما في المجالين السياسي والاجتماعي كان أهم مظاهره إنهيار الامبراطورية الحثية وإنتهاء عهد السيطرة المصرية في آسيا زمن حكم الأسرة الثامنة عشرة وغزوات شعوب البحر من الشمال. ولقد تعرضت مدن هذه المنطقة للتدمير والتخريب آنذاك وكان استقرار الاسرائيليين في ضواحي القدس من عوامل هذا الاضطراب. ولا تقتصر شواهد التدمير التي تكشف عنها الطبقات السكنية من ذلك الزمن على مدن فلسطين وشرقي الأردن وإنما تمتد لتشمل مدنا عديدة في أنحاء الشرق الأدنى وحوض بحر إيجه. وتقول عالمة الآثار البريطانية السيدة كاثلين كنيون (Kethleen Kenyon) بعد إنهائها أعمال التنقيب في أريحا: «يستحيل على المرء أن يقرن تدمير أريحا بتاريخ خروج الاسرائيليين في القرن الثالث عشر ق.م. فتدمير المدينة يمكن أن يكون نتيجة

هجوم جماعة أخرى من العبريين الذين يتميز تاريخهم كما نعرف بالتعقيد. وبالتناوب فان الحكاية المثيرة التي ترويها التوراة عن حصار أريحا وسقوطها ليست إلا تعليلا خياليا لمظاهر التخريب فيها. إن علم الآثار لا يستطيع الاجابة عن هذه المسألة» (١٠). وبالنسبة لمدينة عي تستخلص السيدة جوديت ماركيـة كراوس (Judith Marquet Krause) النتيجة الآتية: «إن الفصلين السابـع والثامن من سفر يشوع واللذين يعتبران تاريخيين لا يخرجان عن كونهما جزءا من أسطورة» (١١). ويعتقد السيد كالاواي (J. Callaway) وهو أخر من نقب في هذه المدينة بان أساس الرواية التوراتية الطويلة هو إستيلاء الاسرائيليين على قرية صغيرة كان قد أنشأها مهاجرون غير إسرائيليين فوق بقايا المدينة البرونزية القديمة. ويستنتج هذا العالم من الشواهد الأثرية التي حصل عليها ما يلي: «إننا لا نستطيع بعد هذا أن نصدق بأن تدمـير بيتـين (Bethel) وتـل الدويـر (Lachish) وتل بيت مرسـم أو تل القـاضي (Hazor) في العصر البرونزي المتأخر كان نتيجة غزو الاسرائيليين لأرض الكنعانيين» (١٢). ويقول الأستاذ جيمس بريتشـارد (J.B. Pritchard) بعـد تنقيبه في مدينة الجيب (Gibeon) : «تأكد لنا بناء على أفضل البراهين المتوافرة بانه لم يكن في الجيب مدينة ذات أهمية زمن يشوع» ويواصل القول: «أن التناقضـات الواضحة التي كشفت عنها نتائج التنقيب الأثري في أريحا وعي والجيب وهي من المدن التي يتحدث عنها سفر يشوع تدل على أننا نسير في طريق مسدود في محاولة العثور على شواهد أثرية لاثبات الروايات التقليدية عن الفتوحات الاسرائيلية» (١٣). وفي معظم الحالات لا يتورع المنقبون التوراتيون عن المبالغة العشواء في تفسير الشواهد الأثرية لتلائم روايات التوراة. فالآثار المكتشفة في بيتين على سبيل المثال تشير الى أن المدينة تعرضت للتدمير خلال القرن الثالث عشر ق.م. ولكن ذلك لا يبرر قول العالم التوراتي كلسو (J.L. Kelso) بأن الذي دمر المدينة في العصر البرونزي المتأخر هو يشوع وجنوده (١٤)، لأننا أولا لا نعرف تاريخ حدوث التدمير بشكل دقيق وثانيا لم يذكر سفر يشوع شيئا عن سقوط بيتين أو تدميرها وثالثا تشير التوراة في سفر القضاة الى أن إستيلاء اليهود على المدينة كان نتيجة خيانة وليس بفعل هجوم عسكري. ولا يوجد في هذه الرواية أيضا أي ذكر لتدمير المدينة (١٥). وكذلك تعرضت مدينة تل الدوير (Lachish) للتدمير بنهاية القرن الثالث عشر ق.م. ولكن هذا التدمير لا يعني تأكيد تاريخ أو حقيقة عبور الاسرائيليين الى فلسطين. لقد عثر المنقبون في تل الدوير على إناء عليه كتابة مصرية قديمة يعود تاريخها الى السنة الرابعة من حكم فرعون مصري يغلب الظن أنه «مينفتاح» وإذا صح ذلك فان هذا التاريخ لا يمكن إعتباره سوى تاريخ بدء تكون الطبقة السكنية التي عثر فيها على هذا الاناء. وعثر المنقبون أيضا على خاتم بشكل جعلان عليه كتابة مصرية يخص الفرعون رعمسيس الثالث في الطبقة السكنية المدمرة. وعلى هذا الأساس تعتقد الآنسة أولغا توفنيل (O. Tufnell) التي ساعدت في أعمال التنقيب وتولت نشر نتائجه بأن تاريخ هذا التدمير في تل الدوير يعود إلى زمن متأخر خلال السنوات الأولى من القرن الثاني عشر ق.م (١٦) ولكن عددا من علماء التوراة يفضلون تاريخ تدمير هذه المدينة في عام ١٢٢٠ ق.م. لملائمته للجدول الزمني للغزو الاسرائيلي رغم أن التوراة لا تشير الى سقوط هذه المدينة بيد يشوع وجماعته. وبالمقابل فان الاحتمال بان يكون المصريون أو شعوب البحر الايجيون أو بعض الكنعانيين هم الذين دمروا تل الدوير أكبر وأقرب الى مطابقة الأحـداث التاريخية والشواهد الأثرية التي تميز هذه الفترة. أما المدن الساحلية مثل بيسان وتل المتسلم وتعنك وغيرها فلا يمكن جعلها مسرحا لأعمال التخريب والتدمير التي مارسها يشوع وأتباعه أثناء العبور لأن التوراة تؤكد بوضوح أن بني إسرائيل لم يهاجموها (١٧).

ولا يختلف الحال بالنسبة لعلاقة الشواهد الأثرية المكتشفة في الطبقات السكنية التي يعود تاريخها الى أوائل عصر الحديد بمجيء الاسرائيليين لاستحالة التعرف على أي تغيرات حضارية ذات طابع إسرائيلي متميز في هذه المرحلة. ولا يسعنا إزاء هذا الحال إلا أن نشارك الأستاذ فرانـكن (H.J. Franken) العالـم الأثـري الهولندي الشهير رأيه في هذا الموضوع أذ يقول: «لولا روايات التوراة التقليدية لما وجد الأثريون التوراتيون أي تغير عرقي يذكر في نهاية العصر البرونزي المتأخر(١٨).

إن السبب في وقوع كثير من المنقبين الأثريين في مثل هذه الأخطاء هو عدم إدراكهم حقيقة أن الشواهد الأثرية لا يمكن تسخيرها لتفسير العقائد الدينيـة أو المذاهـب السياسية. وأهم مثل على ذلك محاولة المفكرين الشيوعيين في روسيا إعادة تصنيف العصور الحجرية والبرونزية والحديدية على نحو يلائم النظرية الشيوعية في تطور المجتمع البشري . فالشيوعيين يعتقدون بأن هذا التطور مر في أربعة مراحل: ١) تشكيل الجماعات الصغيرة، ٢)

النظام القبلي، ٣) إنهيار نظام القبائل، ٤) نشوء نظام الاقطاع. وقياسا على هذا التصنيف أعيد ترتيب الآثار المعروضة في المتاحف لغايات الثقافة والتعليم. ولكن هذا الترتيب لم ينجح في إعطاء صورة علمية عن واقع التسلسل التاريخي. وجلي أن الدافع الأساسي لهذا التصنيف هو الرغبة في تسخير الآثار لخدمة الأهداف السياسية(١٩).

مراجع

١) **Hippias** major 285 d.; Cf. H.N. Fowler, Plato with an English Translation (1929) VI. p. 353.

٢) Roland de vaux, O.P., "On Right and wrong Uses of Archaeology" .**Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century,** ed. by James A.Sanders, New York, (1970.)p. 66.

٣) Hank J. Franken, **"The Other Side of the Jordan", Annual of the Department of Antiquities of Jordan"** Vol.XV. p. 6.

٤) Fritz Bamberger. "The Mind of Nelson Glueck", **Near Eastern Archaeology in the Twentieth Contury,** ed. by James A. Sanders New York, (1970.) p. xxiii

٥) **Survey of Eastern Palestine** I-IV, **AASOR,** vols xiv (1934), xv(1935), XVIII-XIX (1939),XXV-XXVIII(1951).
The River Jordan, 1949
Rivers in the Desert,1959
Deities and Dolphins, 1965; Cf. G.Ernest Wright, "The Achievement of Nelson Glueck", **Biblical Archaeologist Reader** 1,(1961,) p. 11.

٦) N.Glueck,**The Other Side of the Jordan,**) 1970 p. 140; G. Ernest Wright, **op.cit.,** p. 13.

٧) H.H. Franken, **op.cit.,** p. 8.

٨) N.Glueck, **op.cit.,** p. 141; J.J. Finkelstein, Commentary, Vol. 27. No. 4, (1959) pp. 341-50; G. Ernest Wright, "Is Glueck's Aim To Prove That the Bible Is True?" **Biblical Archaeologist Raeder** 1,pp. 14-21.

٩) H.J. Franken,**"The Other Side of the Jordan".** Annual of the Department of Antiquitis of Jordan. Vol. xv, (1970),p. 9.

١٠) Kathleen M. Kenyon, in **Archaeology and Old Testament Study,** ed. by D. Winton Thomas (1967), p. 273.

١١) Judith Marquet Krause, **Les Fouilles de Ai (Et-Tell) (1949) p. 24.**

١٢) J. Callaway, **"New Evidence on the Conquest of 'Ai," Journal of Biblical Literature, 87 (1968) pp. 312-20.**

١٣) J.B. Pritchard, in the Bible in Modern Scholarship, ed. by J.P. Hyatt, (1965), P. 319.

١٤) J.L. Kelso, in **Biblical Archaeologist, 19, (1956), p. 39.**

١٥) Roland de Vaux, O.P., **op.cit.,** p. 77.

١٦) O.Tufnell,in **Archaeology and Old Testament Study,** ed. by D. Winton Thomas (1967). p. 302.

١٧) Roland de Vaux, O.P., **op.cit.,** p. 77.

١٨) H.J. Franken, **"Palestine in the Time of the Nineteenth Dynasty.** (a) Archaeological Evidence," Cambridge Ancient History (revised edition), II, Fasc. 67 (1968), p.9.

١٩) H.J. Franken **"The Other Side of the Jordan",** Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol. XV, (1970) p. 8.